

ارهاصات في الجزيرة

قبيل البعثة المحمدية

للأستاذ الطاهر أحمد مكي

—*—*—*—

— ١ —

كان الاعتقاد السائد حتى القرن الثامن عشر، أن الحركات الإصلاحية وليدة العبقريّة الفردية، فهي مدينة بوجودها لهم، ومتوقفة في بقائها عليهم، وعلى مقدار ما يوجد من عباقرة، يتوقف سير الحياة أو يتدفع، وتبطل بمجلة الزمن أو تسرع، ويشمر مكان القيادة أو يعلأ، حتى إذا جاء دوركم: حطمت هذه النظرية، وأقام على أنقاضها صرحاً سامقاً لنظرية أخرى، وصنع من أشلائها مذهباً عالياً رأى أقوى، يرد كل ظاهرة في المجتمع إليه، وينسب كل ردى إلى تفاعله، ويجرد الفرد من سلاح الخلق والابتكار ...

وهو مذهب حرى بأن يقف الإنسان عنده طويلاً، وأن يعمل حقائقه ملياً، فسيقوده في رفق إلى مواطن الخفاء، فيما ينجح من دعوات فبق، وما فشل من مذاهب فتلاشى؛ وما صلح من أدبان فخلد، ويرد كل نتيجة إلى أسبابها، وكل ظاهرة إلى علامها،

فراقك خطاب منه بين جوانحي سهام بصاب الحزن والهدم تنفس
ولكن حمل الذل موت وعاره إزاء عسواده يضيع التحرس
ولا فلا تبسكي على فاني أموت قرر المين بالمر أهجس
واليك هذه القطعة القوية منزع من إحدى قصائده
العامرة بالقوة

وما من أمة في الأرض لات بغير السيف حقاً بات بذرى
وليس ينال الاستقلال إلا إذا سالت دماء القوم نهرا
وشعب يبتغيه دون جد لشعب سادر ما زال غرا

محمد الحسني

وما الفرد إلا أثر لسكانه وما انفصل به، ولزمانه وما استقبه، وليبئنه وما اعتمل فيها ...

فلم الاجتماع الحديث بقرر أن الظواهر أيا كان نوعها، من خلق المجتمع وليست من صنع الفرد، وحقيقة أى مجتمع لا وجود له بدون أفراد، ولكن من تجمع هؤلاء واحتكاكهم، ينشأ شئٌ يختلف كل الاختلاف عن خواطرم الفردية، وقد يبدو غريباً أن ينشأ من اجتماع عناصر ما، حقيقة خارجة عنها في عالم الماني، ولكنها في عالم الطبيعة أمر ظاهر ومألوف، فكما أن الخلية الحية لا تحتوى على شئ آخر غير الجزئيات المعدنية، كذلك لا يضم المجتمع شيئاً غير الأفراد، ومع ذلك فإنه من المستحيل بداهة أن تحتوى ذرات الإيدروجين أو الأكسجين أو الأذرت أو الكربون على الظواهر المميزة للحياة، وبناء على ذلك فلا يمكن إلا أن تتخذ الحياة المادة الحية بأسرها مستقراً لها، فهي توجد في الشكل ولا توجد في الأجزاء ... وحينئذ فليس لنا إلا أن نطبق هذا المبدأ على علم الاجتماع (١) لأن ما هو ممكن في عالم المادة، فهو في عالم الأناسى أمكن، حيث الأفكار تتفاعل، والنظرات تتزوج ...

وما أناقش مذهباً رست دعائمه، وتوطدت أركانه، أو أن أشرح طرائفه ومناهجه، أو أصوغ قوانينه وقواعده، وإنما أعرض لموقفه من الدين، فهو عندهم ظاهرة اجتماعية وإن جاء به الوحي، وأثر أرضي وإن نزل من السماء، وخلق جمى وإن نهض به رسول، مادام المجتمع قد أخذ به ورضيه، وأخذ إلى أوامره وسكن إلى نظامه. وإن يستقر دين في مجتمع ما، إلا إذا انسجم مع طبيعته، ووام رقيه الفكرى وتطوره الاجتماعى، وكان ممداً لدعائه، متطلماً لأحداثه، فالرسل مترجمون عن حالة المجتمع مهياً لقبولها، يفهم مظهرها، ويستسيغ حقائقها، ويرنو إلى مثاها العليا. ولأمر ما، كان الرسول بشراً، يأكل الطعام ويمشى في الأسواق

« إن الدين لون من ألوان التعبير الإنسانى عن المواطن

والعمل به « (١)

هذا هو رأى علم الاجتماع فى الأديان ، وقد احتدى إليه قوم
يدرسون المجتمع كما هو ، لا يطبرون مع اللائكة ، ولا يتطون
أجنحة الخيال ، ولا يركبون متن القرض ، ولا يجهنون إزاء الحق .
ولا تميمهم المثل العليا عن واقع الحياة ...

وفى ضوء هذا العلم ، وعلى هدى منه ؛ نريد أن نستشف
حال الجزيرة العربية قبيل البعثة المحمدية ، لتفهم حالها ... أجا .
الإسلام فصار بها إلى غير ما أحببت ، وساقها إلى غير ما هويت ،
ونقلها من حال كانت فيها ، إلى حال لم تكن تريدها ؛ أم أن
تيار الحوادث ؛ كان ينبى " بما سيتمخض عنه الغد ، وما سيحده
المستقبل ، وما ستأتى به الليالى فى قابلها القريب أو البعيد ؟ ...

الطاهر أحمد مكي

« سلام صلة »

كلية دار العلوم - جامعة فؤاد الأول

(١) علم الاجتماع الدينى ، يوسف ياسيل شلعت ص ٩

والميل والمثل العليا ، وإن هذا اللون من ألوان التعبير متصل
أشد الاتصال بأمزجة الأفراد والأمم ، يمثل لها تعيلاً صادقا
قويا ... وهو طريق من الطرق التى تسلكها الإنسانية إلى الجمال
والحق والمثل العليا « (١) ومن ثم تعددت الأديان ، لا بتعدد
المصور وحدها ، وإنما بتعدد الأمكنة أيضا ، لأن ديننا ما ، قد
ينهض فى موطن ويكبو فى غيره ، وقد بشر فى مجتمع ويجذب
فى سواه ، فالدين الإسلامى مثلا ، وقف عند حدود مروة ودول
معلومة ، ورغم الجهد الجبار الذى بذلها المسلمون فى اجتياز هذه
الحدود ، لم يكتب لهم النجاح ، ولم يقدر لهم التوفيق ، على حين
أن هناك أما كن انتشر فيها بطبيعتها ، ولم يجد صعوبة ما فى أن
يتثبت فيها وأن يقوى ا ...

وأنا وأنت وفيرنا ، هل كان لنا فضل فى اتخاذ الإسلام ديننا
والإيمان به عقيدة ، أم أننا خرجنا إلى الحياة ، فوجدنا آباءنا
كذلك ، فتأبنناهم وسارناهم وسلكنا نفس الطريق
الذى يسلكون ؟ ... هل استطاع أحد ما ، مسلما كان
أو مسيحيا أو يهوديا أو حتى بلادين ، أن يصطنع الجدة ساعة ،
فراى المتابعة كسلا ، والتقليد خمولا ، والإذعان ضعفا ، فنقب
وبحث ودرس وقارن ، وانتهى إلى عقيدة نيرة ، يؤمن بها لأنها
حق ، وبخضع لها لأنها صواب ؟

إنما نحن أسارى المجتمع « فالطفل حين يدخل العالم لا يحمل
معه سوى طبيعة بيولوجية ، غير خلقية أو اجتماعية ، تستطيع
أن تتكيف بجميع الهيئات والأشكال ، فهو لا يختار لنفسه لغة
دون أخرى ، أو ديانة دون غيرها ، بل هو المجتمع الذى يضطره
إلى اتباع الديانة التى يشب عليها ، أو اللغة التى يتكلم بها ،
والواحد من ساعة نشأته يؤلف جزءاً من مجتمع له تسميته
وأخلاقه ولغته وديانته وفنه وعاداته وتقاليده وتاريخه وأنظمته
وغرافاته ومثله الأعلى ، ولابد له من التقيد بهذا الميراث

(١) لشاعر الهند طاغور : قلا من مقال محمود المتجورى بمجلة
« الحديث » ص ١٦٠ العدد ٤ سنة ١٦

٣٦٠ ٢٣

وزارة الحريه والبحريه

ترجو تقديم عطاءات بديوان
الوزارة لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم
١٧ / ٣ / ١٩٥١ عن توريد اللين
الحليب اللازم للكلية الحربية
والمستشفيات العسكرية فى المدة من
مارس لغاية آخر يونية سنة ١٩٥١
وتطلب الشروط على ورقة دمنه
فئة ثلاثين مليا من ادارة المقود
والشترتات بالوزارة مقابل ٢٥٠ مليا
وأجرة البريد أربون مليا

٧٧٧٣